**الفكر الجزائري المعاصر ــ عبدالحميد بن باديس نموذجا ــ**

من الخطأ الاعتقاد أن التاريخ شيء مضى وانقضى، بل يعتبر مظهر لعبقرية الأمم، لأن دراسة التاريخ ضرورية لفهم الحاضر والتعرف على جذور مشكلاته وأصولها، وقد يساعد على مواجهتها بشكل أفضل وأشمل، وقد تجد الأمة في تراثها العديد من الآراء التي من الممكن أن تكون آليات مستحدثة، تسهم في بناء حاضرها ومستقبلها على النحو الذي تتطلع اليه. ويمثل الشيخ عبد الحميد بن باديس أحد أبرز مفكري رواد التنوير ودعاة الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر عموما والفكر الجزائري المعاصر خصوصا، والمعروف عن فكر الشيخ بن باديس أنه متعدد الجوانب، وأبرز هذه الجوانب الجانب التربوي التعليمي الذي كرس له 27 عاما من حياته، إلى جانب المهام الأخرى التي كان يرى أنها مهام مكملة للنشاط لتعليمي أو هي امتداد له، النشاط الذي جعله الأساس لكل عمل إصلاحي و المدخل لكل تغيير اجتماعي وثقافي، ونهوض فكري و سياسي.

**أولا: من هو الشيخ عبد الحميد بن باديس ؟**

ولد عبد الحميد بن باديس في 04 ديسمبر عام 1889م بقسنطينة، هو أحدُ روّادِ النَّهضةِ الإسلامية في الجزائر، ومن أهمِّ رجالِ الإصلاح على مستوى العالم العربي والإسلامي، يَنحدرُ الإمام ابن باديس من سلُالةِ أُسرةٍ عريقة، كانت أولى مراحل تعليمه في الكتابِ القرآني، وتمكنَ من حفظِ القرآن كاملاً وهو في الثالثة عشرة من عمره، درسَ مَبادئ العلومِ العربية والإسلامية على يد أشهر المَشايخ، ومن بينهم الشّيخ حمدان الونيسي القسنطيني، التحق الشّيخ ابن باديس مع حلول عام 1908م إلى جامعِ الزَّيتونة، وبدأ هناك بِتلقي العلوم، ثم توجّه إلى أرضِ الحجاز في عام 1913م، وذلك لِأداءِ فريضة الحج، وتمكن من التَّواصل مع علمائها، واستطاع التّعرف على بعضِ العُلماء الكبار في المَدينة المنورة، ونالَ شَرَفَ إلقاء درسٍ دينيٍ في الحرمٍ النَّبوي الشّريف، بعد رجوعه من الحجاز، تأكد للشّيخ ابن باديس أن خدمة الوطن ونهضته لا يمكن أن يقوم بها شخص واحد، لذلك كان من الطبيعي أن يتطلع إلى توسيع الخطة الإصلاحية التي شرع في تنفيذها بتعليم الناس وإرشادهم وتصحيح أمور دينهم، واستنهاض همم العلماء أمثال البشير الابراهيمي، الطيب العقبي، العربي التبسي، مبارك الميلي إلى تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين بعد عام من الاحتفال بمضي قرن على احتلال الفرنسيين للجزائر  1930م، وذلك يوم 05 ماي 1931 م في اجتماع بنادي الترقّي. توفي الشّيخ عبد الحميد بن باديس في 16 أفريل عام 1940م بقسنطينة.

**ثانيا: مؤلفات عبد الحميد بن باديس:**

ألف ابن باديس مجموعة من الكتب نذكر من بينها: كتاب آثار ابن باديس إعداد وتصنيف: عمار طالبي، كتاب تفسير ابن باديس أو "مجالسُ التذكير من كلامِ الحكيم الخبير" كتاب مجالسُ التذكير من حديث البشير النذير، كتاب "العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية".

**ثالثا: فكر عبد الحميد بن باديس**

إن لابن باديس فلسفة تربوية واضحة الأهداف، بعيدة المقاصد. ويمكن استخلاص عناصر هذه الفلسفة وأبعادها من آرائه و أفكاره التي عالج فيها قضايا التربية، ومسائل التعليم، وأبرز من خلال ذلك أهمية التربية وضرورتها بالنسبة إلى المجتمعات التي تسعى للنهوض من كبوتها، وتتمثل هذه العناصر في:

**1. إعداد الفرد الجزائري للحياة:** المقصود بالإعداد للحياة هو الإعداد الكامل الذي يشمل الحياة العقلية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فابن باديس كان يرى أن تربية الفرد الجزائري من أجل إعداده الكامل للحياة يعتبر من أهم الأهداف التربوية التي ينبغي أن تسخر الجهود في سبيلها، وإعداد الفرد يكون من خلال ثلاث مجالات: المنزل، المدرسة، المجتمع.

**أـ المنزل:** ابن باديس في منهجه الاصلاحي للمجتمع الجزائري وفي عمله التربوي لتلامذته، يؤكد كثيرا على ضرورة العناية بالأسرة باعتبارها النواة الأولى في المجتمع، لأن الأمة تتكون من مجموعات من الأسر، فإذا اعتنى كل فرد من أبناء الأمة بتعليم أسرته وتربيتها وتهذيبها ترتقي الأمة كلها بارتقاء مجموع أسرها والعكس صحيح، يقول ابن باديس: « البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتدين الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الاسلامية في البيوت بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن» ، وقد بذل ابن باديس جهودا كبيرة لتربية المرأة الجزائرية وتعليمها حتى تستطيع تربية أبنائها خلقيا وتعليمهم كي يمكن تدارك التدهور الخطير في أخلاق المجتمع الجزائري.

**ب ـ المدرسة:** إلى جانب الأسرة تلعب المدرسة دورها في تشكيل أخلاق الطفل وسلوكه العام فهي أول مجتمع يتصل به بعد أسرته، وتعتبر المدرسة بمثابة:« أعظم قوة خلقية في المجتمع بعد الأسرة، وهي باعتبارها مؤسسة اجتماعية تنوب عن الوالدين في تربية الأطفال وتعليمهم، لها ميزة خاصة على غيرها من المؤسسات الاجتماعية الأخرى، وهي انفرادها بعملية نقل التراث الفكري الذي تتكون منه ثقافة المجتمع إلى الأجيال الصاعدة من أبنائه لإعدادهم للحياة فيه، والمحافظة على تراثه ومن هنا يتجلى دور المدرسة في بناء الناحية الأخلاقية في شخصية الأطفال»

**ج ـ المجتمع:** المجال الثالث والأخير للتربية هو المجتمع بمؤسساته وأحزابه ومنظماته وهيئاته النقابية وجمعياته وثقافته ونمط الحياة وطرق التعامل بين أفراده وعاداته وتقاليده، فإن الأطفال:« يمتصون في هذا المجتمع أساليب السلوك الذي يتعاملون به فيما بينهم ومع غيرهم، ومن هنا تلح التربية الحديثة على وجوب التعاون بين المنزل والمدرسة في التربية الأخلاقية للناشئين والعمل بكل على توفير البيئة الاجتماعية الصالحة التي لا تهدم ما يقوم المنزل والمدرسة ببنائه، لذلك يجب اصلاح المجتمع من مظاهر الاعوجاج والانحراف حتى لا يكون عاملا معوقا للتربية الأخلاقية المنشودة».

ويوجه ابن باديس نداء إلى المسلم الجزائري ويدعوه فيه إلى أن يكون ابن عصره في الفكر والعمل والتجارة والصناعة وكل ما من شأنه أن يرقى بمستواه الفكري والمادي فيقول: «حافظ على مالك فهو قوام أعمالك، واسلك كل سبيل مشروع لتحصيله وتنميته ... حافظ على حياتك ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميل عاداتك، وإذا أردت الحياة لهذا كله فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة، وطرق المعاشرة والتعامل. كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجاربك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدنك ورقيك »

**2. المحافظة على الشخصية الجزائرية:** تعتبر المحافظة على الشخصية العربية الاسلامية للشعب الجزائري من أبرز الأهداف التربوية التي نادى بها ابن باديس، فهو: " لا يتصور مستقبلا آخر للجزائر إلا في ظل عروبتها واسلامها وهما ركنان أساسيان من أركان الشخصية الجزائرية الثلاث، أما الركن الثالث فهو الجزائر فالإسلام بتراثه الروحي العظيم، والعروبة بقيمها العريقة والجزائر بماضيها المجيد ومستقبلها الزاهر هي الأركان الثلاثة للشخصية الجزائرية " وإذا ما حاول أحد المساس بالشخصية الجزائرية أو بأحد مقوماتها، فابن باديس يتصدى له بالرد:« إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها»

**3. المحافظة على الوحدة القومية للشعب الجزائري:** كان من جملة أهداف السياسة الفرنسية في الجزائر بث الخلاف والشقاق بين أبناء الجزائر حتى لا تجتمع لهم كلمة، ولا يتوحد لهم صف، وادعاء فرنسا بأن الجزائر يسكنها شعبان مختلفان تمام الاختلاف هما : العرب والأمازيغ، بل تمادت في عملية بث الخلاف والشقاق حتى بين الأمازيغ أنفسهم حيث قسمتهم إلى قبائل وشاوية وميزابيين وطوارق. وقد رأى الإمام ابن باديس بثاقب نظرته أن الخطوة الأولى في سبيل تحرير الجزائر من الاستعمار تبدأ من الوحدة الوطنية والقومية، ولذلك عمل على إيجاد هذه الوحدة، فسعى: « إلى توحيد الشعب كله وراء هدف واضح ومحدد على أساس من رابطة الدين والعروبة، ولذلك كانت فلسفته التربوية تقوم على دعائم العقيدة الإسلامية فعن طريق الإسلام والعروبة استطاع ابن باديس أن يوحد صفوف الشعب ويكتل قواه الحية من أجل المحافظة على وحدته القومية من ناحية، وإفساد أهداف الاستعمار في بذر بذور الخلاف والشقاق بين الجزائريين»

**4. خدمة الإنسانية في جميع شعوبها وأوطانها:** من أهداف التربية عند ابن باديس خدمة الإنسانية ونشر محبتها بين تلامذته ، فهو يحثهم على نبذ التعصب والحقد والبغض والكراهية لمن يخالفهم في الدين أو الجنس، يرى ابن باديس أن الناس ازاء هذه الحقيقة أربعة أقسام:

ـ قسم لا يعرفون إلا أوطانهم الصغيرة وهؤلاء هم الأنانيون الذين يعيشون على أممهم كما تعيش الطفيليات على دم غيرها من الحيوان، وهم في الغالب لا يكون منهم خير حتى لأقاربهم وأهل بيتهم.

ـ وقسم يعرفون وطنهم الكبير فيعملون في سبيله كل ما يرون فيه خيره ونفعه، ولو بإدخال الضرر والشر على الأوطان الأخرى، بل يعملون على امتصاص دماء الأمم، والتوسع في الملك، لا تردهم إلا القوة، وهؤلاء شر وبلاء على غير أممهم، بل وعلى أممهم، فهم مصيبة البشرية جمعاء.

ـ وقسم زعموا أنهم لا يعرفون إلا الوطن الأكبر، وأنكروا وطنيات الأمم كما أنكروا أديانها ووصفوها بأنها مفرقة بين البشر، وهؤلاء عاكسوا الطبيعة جملة.

ـ وقسم اعترف بهذه الوطنيات كلها، ورتبها ترتيبها الطبيعي في تدرجها، وآمن بأن الإنسان يجد صورته وخيره وسعادته في بيته ووطنه الصغير، وكذلك يجدها في أمته ووطنه الكبير ويجدها في الإنسانية كلها

وطنه الأكبر. وهذا القسم الرابع هو الوطنية الإسلامية العادلة. إذ هي التي تحافظ على الأسرة بجميع مكوناتها وعلى الأمة بجميع مقوماتها وتحترم الإنسانية في جميع أجناسها وأديانها.